PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(2): 449-464

ISSN:1553-6939

THE STRUCTURAL FORMATION OF MENTAL REFERENCE: FROM CONSTRUCTION TO RECEPTION

Dr. Wahiba Khabil[1]

[1]University Mouloud Mammeri of Tizi-Ouzou (Algeria).

The E-mail Author: omhadjer15@gmail.com

Received: 06/2023 Published: 03/2024

Abstract:

The topic of "reference" is an ancient one, but the development of linguistic studies and its various branches has made it necessary to delve into it, especially with regard to its influence on the reference system in cognitive discourse studies. In our research, we will focus on the phenomenon of reference within the framework of the phenomenon of "selfhood" in texts of Quranic debates. Our analysis will revolve around a comparative examination of the structure of reference, considering its stability in some cases and its transformation in others, as well as its specific reception in different cases. By stability, we mean its position in linguistics, which can be divided into two types: subjective reference ("Référence Subjective") and objective reference ("Référence Objective"). These two types are embodied at the level of discourse and usage, expressing the presence of the speaker and the receiver as essential elements in the communicative process. It is the speaker who refers, not the linguistic expression itself. In communication, the referential function of language operates with a subjective imprint, representing an individual and self-performed act by the speaker and perceived by the addressee.

Keywords: Reference structure, stability, transformation, reception, Koran, cognitive discourse.

التشكّل النّسقي للإحالة الذّهنيّة: من البناء إلى التلقّي

الدكتورة. خبيل وهيبة[1]

[1]جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)

ملخص

يعدّ موضوع **"الإحالة"** موضوعا قديما، إلّا أنّ تطوّر الدّراسات اللّسانيّة وتعدّد مباحثها جعل الخوض فيه من الضّروريّات خاصّة مع التّأثير الحاصل في نظام الإحالة في الدراسات التداوليّة المعرفيّة، وسنتناول ظاهرة الإحالة في بحثنا في إطار ظاهرة "الذّاتيّة" في نصوص المناظرات القرآنيّة، وسينصبّ تحليلنا على نوع من المقارنة بين وضعيّة **الإحالة** من حيث بناء نسقها بين **ثباتها** حينا و**تحوّلها** حينا آخر، وبين التلقّي المخصوص لها مع تعدّد حالاتها، ونقصد **بالثّبات** موقعها في اللّسانيّات من حيث تفرّعها إلى

نوعيْن **إحالة ذاتيّة** Référence Subjective **وإحالة موضوعيّة**Référence Objective، اللّتين تتجسّدان في مستوى الخطاب والتداول (الاستعمال) وتعبّران عن حضور المتكلّم والمتلقّي كعنصرين لازمين في العمليّة التّخاطبيّة، ذلك أنّ المتكلّم هو الذي يُحيل وليست العبارة اللّغويّة، فعند التّخاطب تشتغل الوظيفة الإحاليّة للّغة ببصمة ذاتيّة تُمثّل عملا فرديّا ذاتيّا يُنجزه المتكلّم ويلقّفه المخاطَب.

الكلمات المفتاحية: نسق الإحالة، الثّبات، التحوّل، التلقّي، القرآن الكريم، التّداوليّة المعرفيّة.

مقدمة

تتميّز الإحالة بنوع من التحوّل من خلال الضّمائر باعتبارها عناصر إشاريّة تحيل على موضوعات متعدّدة في الواقع، فتصير بذلك ظاهرة قصديّة تمتلك سمة التّغيير من بناء لغويّ إلى آخر، ممّا يجعل تفسيرها معقّدا بفعل ميزة الحركيّة الّتي تكتسبها من خلال التّركيب والاستعمال، ومن حيث اتّصالها أساسا بعمليّة إلقاء القول وحدوث التّفاعل بين الأشخاص، وهي إذ تحيل على الشّخص الأوّل وتشير إلى علامات الشّخص الثّاني والثّالث فتكون بذلك تعبّر عن الذّاتيّة في اللّغة، ولذلك رأى **بنفنست** أنّ الضّمائر تعدّ «نقاط الارتكاز الأولى لوضع الذّاتيّة في اللّغة»[1] فهي من أهمّ العناصر الإشاريّة الّتي تعدّ «وحدات لسانيّة لا تتحدّد وظيفتها **الإحاليّة** إلّا إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض العناصر المشكّلة لوضعيّة التّواصل، وتتحدّد من خلال:

- الدّور الذي يؤدّيه المتلفّظون في عمليّة التلفّظ.
- الوضعيّة الزّمانيّة والمكانيّة للمتكلّم والمخاطب»[2].

ولأنّها من الإشاريّات المعوّل عليها في تحديد المضمون الإحالي في النّصوص التّواصليّة فقد قُسّمت إلى «عناصر إشاريّة خالصة purs يمثّلها ضمير المتكلّم (أنا) وضمير المخاطب (أنت)، وعناصر إشاريّة غير خالصة (سلبيّة) فيما يتعلّق بضميري الغائب (هو) و(هي) فلا تشير لا إلى متكلّم ولا إلى مخاطب»[3]، غير أنّ ضمير الغائب يقتضي «تحديدات سياقيّة لضبط مضمونه الإحالي»[4] حتّى يتّضح لدى المتلقّي.

وقد تناولت التّداوليّة **"الضّمائر"** حسب **"مقياس الإحالة"** كما تمّ تصنيفها إلى مشيرات مقاميّة وهي الّتي يكون مفسّرها حاضرا في المقام التّخاطبي حضورا ماديّا يُدرك بالحواس مثل "أنا" و"أنت"، أو يكون مفسّرها على شكل "عائد" يحدّد عن طريق سياق القول.

فكيف تتجسّد الإحالة في مناظرات القرآن الكريم؟ وهل تمتاز "بالثّبات" أم "بالتحوّل"؟ وهل يكون فعل تلقّيها وتفسيرها متباينا أم متّفقا عليه؟ .

1. دور الضّمائر في تفسير وتلقّي الإحالة.

تعدّ العناصر الإحاليّة قسما من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلّة، بل ترجع إلى عنصر أو عناصر أخرى من الخطاب المذكور، فشرط وجودها هو النّصّ، حيث تعوّض المشار إليه، فتحيل عليه وترتبط به، وفهمها رهين باستحضار ذلك المشار إليه استحضار عهد أو إدراك حسّي أو غيره[5]، ممّا يسمح لها بنوع من التحوّل، وبهذا التحوّل تتغيّر مقصديّة الإحالة من بناء لغويّ إلى آخر، فتحتاج إلى نوع من التّفسير وهذا ما يجعل عمليّة فهمها وتفسيرها عمليّة معقّدة بعض الشّيء، على اعتبار أنّها **حال تفسيرها «تصير بناء ذهنيّا متحرّكا ومتطوّرا»**[6]، ذلك أنّها تخضع لتأثير العامل اللّغوي، وتتّسم بما تتسّم به الدّلالة من حركيّة وتحوّل دائميْن، الأمر الذي يجعل **"الإحالة"** ظاهرة **"قصديّة"** مشحونة بما يرمي إليه صاحب الخطاب، **فكيف تكون سيرورة الإحالة في نصوص مختارة من مناظرات القرآن الكريم؟**

تتعاضد عدّة مركّبات لغويّة لتحديد الإحالة ومن بينها:

أ. نموذج الإحالة الضّميريّة

يعدّ الضّمير من أهمّ الوسائل المُساهمة في ترابط النّصّ والمستعمل أثناء وجود الإحالة، حيث يملك إمكانيّة الإحالة إلى داخل النّصّ وإلى خارجه.

وقد تناول ثلّة من الباحثين الضّمائر بالدرس من زوايا مختلفة، حيث أبرز "الطّاهر بن عاشور" في تفسيره "التّحرير والتّنوير" مرجع الضّمير بأنواعه المختلفة فجاء: **مفردا ومتعّددا، صريحا ومؤّولا،** كما أبان عن دور الضّمير في تماسك النّصّ القرآني.

والضّمائر حسب **بنفنست** فارغة إحاليّا، وذلك لوقوعها على متعدّدات، فـ"أنا" تقع على كلّ من يستعير جهاز التلفّظ ليُحيل على نفسه متكلّما، وهذا ما لمسناه في بداية المناظرات، قال الله تعالى: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25))(سورة نوح)**[7]، فالمتكلّم هو الله تعالى الذي يُحيل عليه ضمير الجمع (نا) والذي يدلّ في هذا الموضع على التّعظيم.

وقوله تعالى **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيم...) البقرة 258.**

وفي سورة طه المُوردَة لمناظرة موسى عليه السّلام مع فرعون قول الله تعالى**(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2))**

فهنا يحيل الله تعالى على نفسه متكلّما وموجّها للخطاب، فقول "**إنّ الذي حاجّ إبراهيم...."** ليس كقول الله تعالى **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ)**، وقول «ما أُنزل عليك القرآن لتشقى»ليس كقول الله جلّ جلاله(**مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2))**، غير أنّ الآية الأولى المصاحبة لمناظرة "موسى عليه السّلام مع قومه" وردت فيها **إحالة مزدوجة،** قال الله تعالى **(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً)**، وقد تجلّت الأولى في الاسم الصّريح **الله** صاحب الأمر بالفعل، و تجلّت الثّانيّة في الضّمير المستتر(**هو**) العائد على الذّات الإلهية في الفعل (يأمرُكم).

فتميّز المشيرات المقاميّة بدلالة إجرائيّة حسب **كلايبار Kleiber** تحدّد طريقة إدراكنا للمرجع المقصود، فالإحالة على ربّ إبراهيم من خلال الضّمير المتّصل **(الهاء)** تُحيلنا مباشرة على مفهوم وحدانيّة الله تعالى كون إبراهيم عليه السّلام موحّدا لله ربّ العالمين، والأمر نفسه يفسّره ضمير الجمع **(النّون).**

وتعود ضمائر التكلّم على الله تعالى باعتباره **المرجع المقصود** فضلا عن كونه **"راوي القصّة"** وعارض أحداثها، فلا يوجد في القرآن الكريم من يُمثّل هذا الدّور المخصوص غير الله تعالى، ومتى كان إلقاء القول صادرا من الله تعالى دلّت الضّمائر المُحيلة عليه على **عظمة صاحب القول، وعظمة القول نفسه.**

منه نستنبط أنّ **المشيرات المقاميّة ذات اختلافات دلاليّة إحاليّة**، وذلك بتغيّر المُحال عليه، فالضّمير (أنا) الذي يصدر عن الذّات الإلهيّة أعلى شأنا ومقاما من الضّمير (أنا) الصّادر عن الذّوات البشريّة وإن اتّفقت طُرق استعماله.

2. حركيّة النّسق المعرفي للإحالة الضّميريّة

يفرّق الباحثان **هاليداي ورقيّة حسن** في مقاربتهم للإحالة بين إحالتين: **إحالة خارجيّة وإحالة داخليّة**، ويقيم الباحثان مقابلة على مستوى ضمائر الشّخص، حيث ترتبط الإحالة الخارجيّة عندهما بالضّميرين **(أنا-أنت)** اللّذين يحيلان على الخارج أي (خارج لغوي)، أمّا الإحالة الدّاخليّة فترتبط بالضّمير **(هو)** ذلك أنّه يُقيم نوعا من العلاقة بعناصر لغويّةٍ معيّنة.

غير أنّ هذا التّصنيف ليس مستقرا على العموم، فقد تتغيّر صفة الإحالة بين أقطاب الضّمائر، حين تصبح إحالة الضّميريْن (أنا- أنت) داخليّة، وذلك حين يظهران في الخطاب المباشر مثل:

قالت **سوزان: أنا** لا آتي إلى البيت هذا الأسبوع.

فالضّمير (أنا) في هذا المثال يُحقّق إحالة داخليّة لأنّه يرتبط بعنصر لغويّ في الخطاب هو كلمة (سوزان)[8].

ونرى هذه الظّاهرة كثيرا حين «يتقاطع السّرد مع الحوار فنكون أمام الحوارات المباشرة»[9]، وهي الحوارات التي تجسّدها المناظرة في أرقى صورها، ومن نماذجها الراقيّة التي يستوجب الاحتذاء بها نجد "التّفاعل القولي في القرآن الكريم" التي تُنشئ مقابلات على مستوى الضّمائر تتعلّق أساسا بالعلاقات الخطابيّة، إذ يرتبط «المبدأ الخطابي بمسألة المشاركة وعدمها في العمليّة الخطابيّة»[10]، فالمتكلّم والمخاطب هما قُطبا العمليّة التّفاعليّة والتّخاطبيّة في أيّ تواصل بشريّ، حيث يستعمل الأوّل الضّمير (أنا) ليدلّ على نفسه و«يعبّر عن الذّاتية المطلقة»[11] ويعيّن بذلك المخاطب وهو(أنت).

بينما يكون الضّمير (هو) غائب عن العمليّة التّخاطبيّة، **فما هو وضعه؟**

بما أنّ (هو) غائب عن العمليّة التّخاطبيّة والتّواصليّة فلا هو متكلّم ولا هو مخاطب، والمتكلّم هو الذي يباشر بالكلام ويمنح له حضورا وفق سياق معيّن ومقصد مختار، فضلا عن أنّه هو الذي يختار مخاطبه الحاضر في الواقع والمقصود بالتّناظر، كما أنّه هو الذي يحدّد المتلقّي المفترض لخطابه، منه تصير عمليّة تحديد (هو) متعلّقة بالمتكلّم نفسه، وهذا «التّمييز هو الذي يعطيه سمته التّمييزيّة مقارنة بـ(أنا وأنت) إذ يُربط بالإحالة بنوعيْها الدّاخليّة والخارجيّة»[12].

وعلى هذا الأساس ينتج عن المبدأ الخطابي المقابلة الآتيّة[13]:

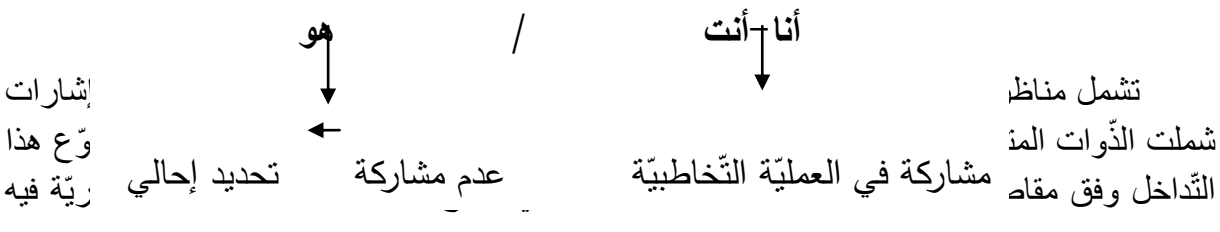

وهي:

1. سرد ⟵ حوار(تناظر) ⟵ سرد

سورة البقرة:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾

﴿رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ﴿فَبُهِتَ الذي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

←

يتداخل السّرد بالحوار في هذا المقام التّناظري بين إبراهيم عليه السّلام والنّمرود، فضلا عن تداخل الإحالات التي سنعبّر عنها كالتّالي:

أنا(الذّات الإلهيّة) ـــــ عن ـــ إلى ـــــ← **أنت(محمّد صلّى الله عليه وسلّم)**

هو

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ)

يدلّ الضّمير الغائب (ـــه) في كلمة ربّه على إحالة داخليّة متعلّقة بعنصر لغوي (إبراهيم)، وبهذا التّعالق بين الضّمير العائد على ذات الرسول وكلمة (ربّ) تقوى فرديّة المحيل عليه وتتعزّز مكانته في المناظرة فهو مؤمن بربّه، موحّد له...؛ في حين يحيل ضمير الغائب (الهاء) في الفعل (آتاه) حسب سياق الآية على من حاجّ إبراهيم، ويستمرّ السّياق في تعيين المُحال عليه بإتباعه بكلمتيْ (الله) و(الملك) اللّتين تفسّران وتحدّدان الذّات المحاجة لإبراهيم عليه السّلام والتي كفرت رغم ما آتاها الله من فضله وملكه، ويعدّ هذا الجزء السّابق للمناظرة مقدّمة لها تفعّل أحداثها وتفسّر ما يأتي فيها.

(رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

ربّ(أنا) ـــــ عن هو(الله) ـــ إلى ـــــ← **أنت**

- ✓ فالمتكلّم يتكلّم عن الله تعالى(هو) الغائب الذي ليس في هذه الآية لا متكلّما ولا مخاطبا بل هو **(موضوع الخطاب والتّناظر).**

(قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

أنا ـــــ عن (أنا) ـــ إلى ـــــ← **أنت**

- ✓ المتكلّم يتكلّم عن نفسه(أنا) إلى "أنت،" **فالمتكلّم هو (موضوع الخطاب والتّناظر).**

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ اَلْمَغْرِبِ)

أنا ـــــ عن(هو) ثمّ عن (أنت) ـــ إلى ـــــ← **أنت**

- ✓ المتكلّم "أنا" يتكلّم إلى "أنت" عن (هو: الله) ثمّ إلى "أنت" عن "أنت" (موضوع الخطاب والتناظر: هل تستوي قدرتك وقدرة الله؟ إيت بالشّمس من المغرب).

2. سرد ←ـــــ **حوار** ←ـــــ **مناظرة** ←ـــــ **سرد(حوصلة)**

أمّا في التّفاعل القولي بين موسى عليه السّلام وفرعون فقد بدأ سورة طه **بسرد** الأحداث التي وقعت لسيّدنا موسى عليه السّلام في طريق الرجوع لمصر من مدين **(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12).......وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41))**، ثمّ انفتح الخطاب إلى المحادثة التي جرت بينه وبين الله تعالى في الواد المقدّس، ليختتم هذا المقطع بإبلاغ الذّات الإلهيّة لنبيّها باختياره واصطفائه للقيام بتنفيذ إرادتها، ففي هذا السّرد نداء لذات الرسول باسمه صريحا، ثمّ جاء التّكليف (الأمر بالذّهاب إلى فرعون بالآيات التي زوّده بها)، ثمّ إنّ الأمر التّكليف جاء بفعل

مباشر هو فعل الأمر (اذْهَبْ) وهو واقع في إطار المحادثة الخطابيّة بين الله تعالى وموسى عليه السّلام في الواد المقدّس.

تتداخل الإحالات في سورة طه وتتعدّد، غير أنّنا سنختار بعضا منها وذلك اعتمادا على شمول إحالتها، وتعدّد مقاصدها:

(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2)............. وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10))

أنا(الله) عن إلى ← **أنت(محمّد عليه الصّلاة والسّلام)**

موسى عليه السّلام

يهدف هذا الحوار(المحادثة) الّذي جرى بين الذّات الإلهيّة وموسى وهارون عليهما السّلام تفسير المهمّة المكلّفيْن بها فهو **خطاب إلهيّ مفسِّر**، راسما المنهج الأمثل لدعوة فرعون إلى طريق الحقّ وهو: اللّين في الحديث والتّكليف بهدف تبليغ الرسالة وهو تحرير بني إسرائيل من قبضته.

وقد خصّص الله تعالى رسله بالرعاية (السّمع والرؤية).

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43)..........................فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47))

أنا(الله) عن إلى ← **أنتما(موسى وهارون عليهما السّلام)**

هم

وفي سورة الشّعراء يأتي الحوار بين الله وموسى عليه السّلام على الشّكل التّالي **(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15))**

يقوم هذا الحوار بين الله تعالى وموسى عليه السّلام في مقام التّبليغ بإتيان فرعون على **التّوجيه وتخصيص الرسول بالعناية الإلهيّة المتجليّة في السّمع والمرافقة الإلهيّتيْن**، وتكرّس الإحالة بضمير المتكلّم في الجمع **(إنّا)** هيمنة الذّات الإلهيّة المرسِلة وتحكّمها المطلق في سير الأحداث.

وتفعّل الإحالة الداخليّة بالقرائن اللّغويّة (الضّمير) في هذا المقطع الحواري **نسقا معرفيّا** يُعلن عن تبوّء موسى عليه السّلام المكانة العليا التي اكتسبها بفضل الرعاية الإلهيّة.

يعدّ الحوار في السّورتيْن **مقدّمتيْن** لقصّة موسى عليه السّلام مع فرعون، حيث عرّفت المقدّمتان المتلقّي بحالة موسى عليه السّلام الجديدة وهي (التّكليف بتبليغ رسالة الله تعالى) فصار بموجب ذلك رسول الله إلى قومه، وقد اشتركتا في «استراتيجيّة توصيليّة- تبليغيّة متشابهة تستند إلى المقدّمات المعرِّفة بالمتخاطبين: **الله** ← **موسى**، للوصول إلى الهدف المرجو تحقيقه: الإيمان بالله وإرسال بني إسرائيل»[14]، غير أنّ هذا الهدف يستوجب إعلام فرعون العارف بشخص "موسى" بالتحوّلات التي طرأت على ذاته والمتمثّلة في "التّكليف والرسوليّة"، ذلك أنّ الذّات الموسويّة قد «تقيّمت في المنظور الفرعوني سلبا في السّورتيْن: فظهرت أوّلا ذاتا متّهمة بالسّحر بعد إظهار الآيتيْن في سورة طه، وذاتا

ممنونا عليها في سورة الشّعراء كما علّق على فترته عند فرعون وتعبيد هذا الأخير لبني إسرائيل»[15]، وقد عبّدت الطّريق لذلك جملة **الإضمارات والقرائن اللّغويّة والسّياقيّة** التي **تعيّن المقصود وتبني المعرفة.**

وإذا كانت الإحالة في سورة الشّعراء تكرّس هيمنة الذّات الإلهيّة التي أكسبت ذات رسولها مكانة عليا مرتبطة بها، فإنّها في مناظرة موسى وهارون عليهما السّلام مع فرعون تتجاوز ذلك وتعزّزه بإضافة البعدين الزّمني والمكاني الخاص بالذّات الرافضة للتّوحيد، قال الله تعالى **(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48))**

هو(الله) عن(هو) إلى ← **نحن**

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49))

هو(فرعون) عن(هو: الله) إلى ← **أنتما**

(قَالَ رَبُّنَا الذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

هو(موسى) عن هو(الله) إلى ← **أنت**

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56))

نحن(الله) عن(هو: فرعون) إلى ← **هو(محمّد صلّى الله عليه وسلّم)**

لخّصت هذه الآية مسألة "تلقّي فرعون للتّوحيد"، فالله تعالى انبرر بضمير الجمع (نحن) يوحد بلوغ الرسالة لفرعون المعبّر عنه بضمير الغائب (**الهاء**)، وبالضّمير الغائب (**هو**) المرتبط بالفعليْن (**كذّب**) و(**أبى**)، ممّا يجعل فرعون هو **فاعل الإحالة** وفي الوقت نفسه **موضوع الخطاب**، يفسّره التّقابل بين ضمير التكلّم (نحن) والضّمير الذي يحيل عليه وهو ضمير الشّخص الثّالث، كما يفسّره السّياق العام للآيات.

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58))

هو عن(أنت) إلى ← **أنت**

يتحدّد **موضوع الخطاب** فيما يُحيل عليه ضمير الغائب (هو) فهو متعلّق بعنصر لغويّ داخل الخطاب وهو الفعل (قال) ليجعل بذلك الإحالة داخليّة، فيتجلّى الموضوع الإحالي في فرعون وكيده لموسى عليه السّلام ومعلنا مبدئيّا عن الاستراتيجيّة التي سيعتمدها لمواجهة موقف موسى عليه السّلام (أنت).

وتكرّس هاتان الآيتان **تعالق البُعديْن الزّمني والمكاني** الضّابط لموقف فرعون من التّوحيد، وقد أرجأ فرعون إبراز حججه المفنّدة لما جاء به موسى عليه السّلام إلى موعد وزمان معلوميْن يُحدّدهما هذا الأخير من خلال اللّفظيْن (**موعدا- سُوًى**) الواردين في سورة طه، وسنتطرّق لهذيْن العنصريْن في المبحث الثّالث.

(قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) (قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64))

هو(موسى) عن(الله) إلى **أنتم(السّحرة)**

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65))

هم عن(أنت) إلى ← **أنت**

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66))

هو ــــعن (هي) إلى ــــــ أنتم

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69))

نحن(الله) ــــعن (هو: موسى) إلى ــــ هو

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70))

هم ــــعن (هو: الله) إلى ــــ هو(الله)- هم (حضور المناظرة)

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71))

هو ــــعن (هم) إلى ــــ هم

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَالله خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76))

هم(السّحرة) ــــعن (هو: الله) إلى ــــ هو

✓ **المقطع السّردي وتجلّي الإحالة فيها**

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77))

نحن (الله) ــــعن(هم: اليهود) إلى ــــ هو(موسى عليه السّلام)

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)).

هو(فرعون) ــــ إلى ــــ هم (المتلقّين)

عن (هم: قومه)

تمنحنا المناظرة في هذا الموقف (الإحالات التي تعزّز مقاصدها) شبكة معقّدة، فالمفاهيم تعزى إلى الله تعالى الذي أنشأ القول وبلّغه الذوات الرّسل عليهم السّلام ومن بعدهم لسيّدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

فتظهر الذّات الإلهيّة في المناظرات كمتكلّم واضع لفحواها، فهو بذلك منشئ القول الذي سيسري على لسان رسله عليهم السّلام، فالله الواحد الأحد هو الواضع لمفاهيم التّوحيد التي لا تختصّ إلّا بذاته الإلهيّة، فتكون الفرديّة والوحدانيّة أعظم مظاهرها ولبّ مواضيع دعوات الرّسل مع أقوامهم.

فتظهر بعدها الذّوات الرافضة لدعوة الرسل على تعدّدها "كمتكلّم مقاميّ" مرتبط بمكان وزمان مخصوصيْن، وبتمثّلات ذهنيّة رافقت الزّمن الذي وُجد فيه من ابتعاد عن طريق الحقّ والتّوحيد واتّباع طريق رفض التّوحيد وإنكار رسالات الرسل، والاستمرار في عبادة الأصنام واتّباع معتقد الآباء واعتبار النفس إلها عند النمرود وفرعون، فيصير بذلك مفهوم "رفض التّوحيد أو الشّرك" على اختلاف طرقه مفهوما ذاتيّا بامتياز، فـ«كلّ ذهن يدرك المفهوم على طريقته الخاصّة، فالإحالة هي إحالة ذهنيّة داخليّة قبل

أن تكون إحالة واقعيّة خارجيّة»[16] لأنّ الشّرك مُدرك عن طريق الأقوام بآليات ذاتيّة بحتة تختلف هذه الآلية باختلاف العُرف السّائد عند كلّ قوم.

ولا غرو، من خلال تحليل الإحالة والغوص في أعماقها أن نميّز بعض المظاهر التي يقوم بها المتحاورون في المناظرات حين يأخذون أدوارهم وترتيبها أثناء الانتقال من قول إلى قول ومن مقام إلى آخر ضمن معطيات محادثيّة تشترك فيها جميع الأطراف؛ ومن ثمّة ففور تلفّظ أحد المتحاورين بكلام معيّن أو كتابته له تتشكّل المعاني في الكلمات ويعلن مباشرة عن نفسه كمتكلّم (أنا) ومنشئا للآخر الذي يتواصل معه (أنت) في إطار تقابليّ (نوح عليه السّلام مواجها قومه، إبراهيم عليه السّلام مواجها أباه، إبراهيم عليه السّلام مواجها النّمرود، موسى عليه السّلام مواجها فرعون، موسى عليه السّلام مواجها قومه (اليهود)، ومن خلال هذا التّقابل بين "الأنا" و"الأنت" والانتقال الحاصل بينهما في الأدوار تمتلئ بِسِمات التّأشير الشّخصي، ويكون ذلك بـ«ذكر المتكلّم "أنا" والمخاطب "أنت"»[17]، واستعمالهما في سياق مخصوص ليتمّ التّعريف بهما وبشخصياتهما فلا «تعريف قبل التّركيب»[18]، إذ فور النّطق بـ"أنا" لا يمكن إصدار حكم مباشر على أنّها تشير إلى ذات بعينها وإنّما تتعيّن الذّات من خلال استعمالها في مقام تخاطبيّ معيّن، ممّا يسمح بالتعرّف عليها واسكناه هويّتها بين الذّوات الأخرى، فلا «تعريف بلا استعمال»[19] في خطاب ما، فتعبّر عن التّذاوت.

لقد أعلن الله سبحانه وتعالى عن نفسه في الآية 258 من سورة البقرة من بدايتها حين قال: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْك)** متوجّها بالخطاب إلى النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم (أنت) كخطاب أوّل على نهج القصص، قاصّا عليه بعدها نبأ مناظرة إبراهيم عليه السّلام للنّمرود وعارضا أحداثها، المُفْتَتِحة بـ**(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)** معلنا بذلك عن خطاب ثان داخل الخطاب الأوّل و(أنا) و(أنت) أخرى تتناظر بتسيير من الذّات الإلهيّة المهيمنة.

والأمر نفسه يتكرّر في مناظرة موسى عليه السّلام مع فرعون، قال الله تعالى**(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9))** حيث توجّه الله سبحانه وتعالى خطابه للرسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام للتّخفيف عنه ممّا يُقاسي من قومه، وساردا عليه مناظرة رسول من أولي العزم من الرّسل مع متجبّر من الجبابرة وكيف نصره الله تعالى عليه.

نلاحظ هنا أنّ الضّمير يؤدّي ثلاث وظائف تخاطبيّة «فهو إمّا أن يكون متكلّما، وإمّا مخاطبا، وإمّا متحدّثا عنه (غائبا)»[20] فالمتكلّم هو الله تعالى (مخاطب أوّل) على اعتبار أنّه الذّات الوحيدة التي يمكنها الاضطلاع بهذه المهمّة، والمتلقّي هو محمّد صلّى الله عليه وسلّم (متلقّ أوّل) وهذا في الإطار العام للمناظرة، أمّا في الإطار الخاص فإبراهيم عليه السّلام هو المتكلّم (مخاطب2) والنّمرود هو المتلقّي (متلقّ ثان) ليكون المؤمنون (أنتم) هم المتحدّث عنه إذ يُعتبَرون بالخطاب عند سماعه.

فلا غرو، أن ينحو **بنفنست** إلى تمييز الضّمائر من حيث سماتها التّركيبيّة والخطابيّة وجعلها صنفين فـ«صنف ينتمي إلى الإعراب هو الضّمير الغائب وصنف ينتمي إلى التّداوليّة وهو "أنا" و"أنت"»[21] ومنحها صبغة خاصّة ووظائف تخاطبيّة تخدم دلالة التّفاعل القولي في القرآن الكريم، ثمّ إنّ ضمير الغائب لا يحيل مباشرة إلى الخطاب والآنية فيه ترتسم في الإنجاز الفعلي والحالي للضّمير "أنا"

موجّها كلامه للضّمير "أنت" الحاضر معه في المكان نفسه وفي الزّمان ذاته ومشاركا واقع الخطاب حتّى ولو حدث في زمن ليس زمنه، لأنّ القصص القرآني يملك من الخصائص ما يجعل السّامع يُعايش الحدث وكأنّه يحدث في زمنه وعلى مرأى عينيْه.

والجدير بالذّكر في هذا المقام، أنّ الإنسان ذات فاعلة داخل اللّغة يفرض نفسه بما تمنحه من أدوات فيلوّنها بانعكاسات أحاسيسه فـ «الذّاتيّة تتحدّد وحدة نفسيّة تتعالى على مجموع التّجارب المعيشيّة تؤلّف بينها والتي تضمن محايثة الوعي»[22]، وقد حدّد الباحثون الغربيون تجلّي انعكاس المشيرات المقاميّة بما فيها الضّمائر المجسّدة لمقولة الذّاتيّة في «انعكاس عمل القول في استعمالها وتفسيرها بما هو حاضر في المقام التّخاطبي»[23]، فهي حسب **بنفنست** "علامات فارغة" لا تحيل إلى الواقع ولولا «هذه السّمة لما تمكّنت من إنجاز الدّور الذي وضعت من أجله وهو تحويل اللّغة إلى خطاب»[24]؛ فهي بهذا تقوم بإنجاز القول الذي سيؤدّي بدوره دلالة إحاليّة حين يتعلّق بالكون الخارجي ويُحيل على شيء منه يكون موضوع الخطاب.

تتحوّل اللّغة إذن، إلى خطاب بفضل استعمال المشيرات المقاميّة وتفسيرها ضمن المقام التّخاطبي بإعلان "أنا" عن نفسه وإنشاء الآخر المقابل له وهو "أنت"، ليتطوّر الوعي بالذّات أثناء انعكاس العلاقة وتحوّل الطرف الثّاني "أنت" إلى "أنا" ليفرض ذاته بجعل الطّرف الأوّل يأخذ موقعه لتستمر المحادثة وتنمو بينهما، ثمّ تعلن عن إمكانيّات الفاعل المتلفّظ للّغة في استعمال مخصوص وهو ما سمّاه **"جورج يول" بالتّأشير الشّخصي**، فيقوم هذا النّوع من التّأشير«بجلاء على تقسيم أساس ذي ثلاثة أجزاء، ممثّلا بضميري الشّخص الأوّل (I.We) وضمير الشّخص الثّاني (you) وضمائر الشّخص الثّالث (he.she)»[25] ؛ أي ضمائر المتكلّم (أنا- نحن) مقابل (أنت) فضلا عن (هو – هي).

تضطلع الضّمائر المذكورة سابقا على اعتبار أنّ "أنا أو نحن" ضميرا الشّخص الأوّل، و"أنت" ضمير الشّخص الثّاني، و"هو أو هي" ضميرا الشّخص الثّالث بأدوار تخاطبيّة تنبني أساسا على **التّقابل** وهو ما سمّاه **بنفنست** بـالتّقاطب حسب ترجمة **صابر الحباشة** لمصطلح Polarité الذّي يتميّز بأنّه «متفرّد في ذاته، ويمثّل صنفا من التّقابل لا نعثر على نظير له خارج اللّغة»[26]، ثمّ إنّ الضّمير الأوّل «"أنا" له موقع تعالٍ دائما بالنّسبة إلى "أنت" رغم أنّ كلّ واحد منهما لا يُدرَك دون الآخر، إنّهما متكاملان ولكن حسب تقابل "داخلي/خارجي"»[27]، وهو ما يعرف بالمقابلة بين الحضور والغياب عند النحاة العرب، والتي يدعوها **بنفنست** بالمقابلة بين الشّخص واللّاشخص إذ يقول «نجد في الضّميرين الأوليين في الآن ذاته شخصا معيّنا وخطابا يتعلّق بهذا الشّخص فـ"أنا" يشير إلى الذي يتكلّم ويقصد في نفس الوقت ملفوظا يتصّل بـ"أنا". ففي قولي : "أنا" لا يمكن ألّا أتحدّث عن نفسي...وفي نفس الوقت فإنّ "أنا" تصرّح بشيء ما باعتباره خبرا لـ"أنت"، أمّا مع الشّخص الثّالث فإنّنا لا ننفي أنّ هناك خبرا قد نُصَّ عليه ولكن خارج "أنا –أنت"...وقواعد التّخاطب تفترض أنّ كلّ متكلّم يتوجّه إلى مخاطب هو الذي يختاره ويعيّنه بالقصد وهذا لا يتحقّق طبعا إلّا إذا كان السّامع مع المتكلّم في مقام تخاطبيّ مشترك»[28]، فالسّياق الذي يرد الملفوظ يعمل على توضيح مقاصد المتكلّمين وتعطي الملفوظ أهميّة كبرى وقيمة عليا رفيعة.

فالضّميران "أنا و"نحن" يحيلان بالضّرورة على متكلّم ومتلقّ مخصوصان، أمّا "هو" سمّاه فقد يرد شخصا أم حيوانا أم شيئا، ويشترك في العمليّة التّخاطبيّة دائما غائب على اعتبار أنّها يتحدّث عنه، ثمّ إنّ السّمة المشتركة بين هذه الضّمائر هي أنّها لا تستعمل إلّا إذا عرف المخاطب معناها وحقيقتها.

انتقدت **أوروكيوني** تصنيف **بنفنست** لضمير الغائب "هو" وتعيّنه على أنّه يمثّل "لاشخص"، فهذا الضّمير أساسا يقتضي عناصر سياقيّة تفسِّر معناه عكس الضّميرين "أنا" الذي يحيل على المخاطِب و"أنت" الذي يحيل على المتلقّي، إذ يمثّلان معا ضمائر الحضور التي تمارس أداة اللّغة ذاتيّا وفرديّا، ثمّ «إنّ القول بأنّ(أنا) يدلّ على المتكلّم، و(أنت) على المتلّقي، ما هو إلاّ وصف ناقص، وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ " أنا "(أو أي شكل آخر من أشكال ضمير المتكلّم) هو اسم يتّخذه المتحدّث حينما يعدّ نفسه موضوعا للخطابات، أي حينما يتحدّث عن نفسه؛ وأنّ "أنت"(أو أي شكل آخر من أشكال ضمير المتلقّي) يظهر حينما يتحدّث أحدهم عن الشّخص نفسه الذي يتوجّه بالحديث إليه، و"هو" يمثّل الشّخص المتحدّث عنه، ومنه فالضّميران "أنا" و"أنت" يقابلان تماما الشّخص الثّالث (ضمير هو) أي الشّخص المعني بالحديث، والذي يقوم بدور سلبيّ فقط في فعل اللّغة، لكن الأشخاص الثّلاثة يشتركون في كونهم جميعا يستخدمون لطرح موضوع الكلام»[29] وهذا ما يجعل سمة التعاون قاسما مشتركا بين أطراف الكلام في الحضور وفي الغياب، ولا غنى عن طرف منها.

ب- الضّمير بين الإفراد والتّعظيم

أورد القرآن الكريم الضّمير للإحالة على الذّات المتكلّمة، أو الإحالة على الذّات المخاطبة بصيغ دالة على الإفراد، وصيغ أخرى دالة على التّعظيم، وسنركّز في المناظرة التي بين أيدينا على ما تختصّ به من ضمائر في ضوء **علاقة المتكلّم بما يقول، وعلاقته بالمخاطب المواجه له**، مهتمّين بتنوّع الصّيغ الضّميريّة المحيلة إلى الذّات الواحدة في سياق الآية الواحدة.

ومن المعلوم أنّ الله تعالى هو منشئ القول في القرآن الكريم، وهو موجّه الخطاب فيه، وفي هذه المناظرة تبرز ذات الله تعالى متكلّمة في بدايتها، ومن الملاحظ بروز "الهاء" مقترنا بالاسم "ربّ" ثمّ مقرنا بالفعل "أتى" في قول الله تعالى **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ)**، فالضّمير الأوّل يعود على ربّ إبراهيم عليه السّلام (الله تعالى) ويدلّ على استنكار المحاجة في الله تعالى ربّ إبراهيم والنّمرود وربّ كلّ شيء، ومن الملاحظ أنّ الموضع اقتضى بروز ذات المتكلّم فاعلا للقول فالله تعالى هو سارد مناظرة إبراهيم عليه السّلام مع النّمرود على مسامع سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم ولا يمكن لذات أخرى أن تضطلع بهذه المهمّة، أمّا الهاء الثّانيّة المقترنة بالفعل "أتى" فتعود على النّمرود المرتبط بالملك الذي منحه له الله تعالى، والعلاقة -ها هنا- بالضّمير والصّفة (الملك) تخضع لمستوييْن:

الأوّل: هو أنّ الملك لم يتأت إلّا بإرادة الله تعالى، فظهرت مشيئة الله التي لا يمكن لبشر أن يبلغ شيئا لا من مُلك ولا جاه ولا غيره دونها.

أمّا **الثّاني**: فهو أنّ الأصل في وقوع الجزاء هو الثّناء والحمد.

تشير في هذه الآية الذّات المتكلّمة إلى نفسها عن طريق لفظ "الله" موطّدة العلاقة بينها وبين القول (المناظرة)، ومبرزة علاقتها بالمخاطب الذي حصل على الملك بمشيئتها، ووصف هذا الكافر بوصف المنعم عليه وذو فضل من الله عظيم حين يقول الله تعالى **(أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ)** أي آتاه ملكا لا يستحقّه فادّعى ما ادّعى، وكفر كما كفر، فالملك هنا ليس ملكا ذاتيا وإنّما هو هبة ورزق من الله تعالى توجب الشّكر بالجوارح والحمد باللّسان، غير أنّه قابل نعم الله تعالى بالجحود، وإحسانه بالكفر، ورحمته بالطّغيان.

إنّ عمليّة قصّ القول في القرآن الكريم من طرف الله تعالى تستوجب ورود ضمائر التّعظيم الدّالة على صاحبها، وهذا ما يترجم ضمن علاقة المتكلّم بما يقول،ذلك أنّ أسباب ارتفاع منزلة القول أن يكون

صادرا من ذات مرتفعة المكانة، خصوصا إن كانت هذه الذّات محرّكة للقول ومنشئة له، فضلا عن رفعة شأن الرّسل المكلّفين بحمل الرّسالة إلى أقوامهم.

وبما أنّ المناظرة هي خطاب تكليف من الله تعالى فإنّ عظمة القائل والآمر ستلقي بظلالها على المتلقّي الذي سيُشدّ انتباهه فيُصغي لها.

وتجسّد الضّمائر في هذا الخطاب الربّاني قضيّة محوريّة وهي إثبات صفة الوحدانيّة لله تعالى، وتأكيد قدرته المطلقة وهيمنته، ويتجلّى ذلك في قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25))(سورة هود)

(يُحْيِي وَ يُمِيتُ)/ (إِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ)(سورة البقرة، الآية 258)

(فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16))(سورة الشّعراء)

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42))(سورة طه)

إنّ صيغ التكلّم في هذه الآيات دالة على تعظيم قائلها، فالمتكلّم الممثّل في الذّات الإلهيّة تخاطب رسلها (أنت) بقدرة عاليّة لا تدانيها قدرة، واستعمال "نون الجمع" و"ياء المتكلّم" في مقام نسب الآيات إلى الله تعالى يحمل المخاطَب على الإصغاء إلى ما سيلقى عليه وما يُعرض عليه من قصص وأخبار، وفي إيرادها في القصص القرآني تسرية عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما يكابده من أجل الدعوة إلى الله تعالى، ولا يمكن في هذا المقام أن تسند ضمائر التّعظيم لسواها ولا أن تتعلّق بغيرها.

ولقد جاءت الآيات التي افتتحت بها المناظرات معظّمة للذّات الإلهيّة القاصّة لأخبار رسلها، واستعملت صيغ التّعظيم في (**أَرْسَلْنَا**)، (**بِآيَاتِنَا إِنَّا**) الدالة على حدوث الفعل الإنجازي (الإرسال والتّزويد بالآيات).

تظهر ذات الرسول موسى عليه السّلام راجيّة ربّها بأن يشدّ أزرها بهارون عليه السّلام، قال الله تعالى (**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15)**)(سورة الشّعراء)

وفي موضع آخر(**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37)**)(سورة طه)

وفي سورة القصص (**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ(33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ(34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ(35)**)

نلاحظ في هذه الآيات الكريمة أنّ سياق المؤازرة اقتضى التّعبير بصيغة التّعظيم والاعتماد على ضمائر الجمع (**بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ/ مَنَنَّا/ بِآيَاتِنَا**) الدالة على علوّ المرسل وعلوّ رسالته، وعلوّ مبلّغها، كما اقتضت «دلالة بيان قدرة الله تعالى على السّيطرة والتحكّم، اختيار صيغة التّعظيم»[30]، في حين اقتضى مقام شدّ الأزر والمرافقة في تبليغ الرسالة استعمال صيغ الإفراد، قال الله تعالى (**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا**)، وهذه الصّيغة تجعل من المخاطَب مطمئنا، فعِظم المرافقة من عظمة صاحبها.

ثمّ إنّ الضّمير المستتر في الأفعال (**يُحْيِي وَ يُمِيتُ**)، و(**يَأْتِي**) الواردة ضمن "مناظرة موسى عليه السّلام مع فرعون" يعود على الله تعالى الذي يختصّ بإحياء المخلوقات وإماتتها، وبإشراق الشّمس من مشرقها بدل مغربها، فاستعمال هذه الضّمائر تؤكّد الحضور الإلهي المطلق في القيام بهذه الأفعال وبهذا تمنحها صفة التّعظيم عظم شأن فاعلها، وهذا ما يترجم في ضوء **علاقة المتكلّم بما يقول** «حيث أنّ من أسباب ارتفاع منزلة القول، أن يكون صادرا من ذات مرتفعة، خصوصا إذا كانت هذه الذّات تحكي دورها في هذا القول، وإذا علمنا أنّ هذا من أهداف القصص القرآني، الدّعوة إلى عبادة الله عزّ وجلّ (المتكلّم بالقول) والتّسريّة عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لِمَا يُلاقيه في سبيل هذه الدّعوة، فهذا يعني أنّه لابدّ أن تكون للذّات القاصّة فيها، دور مرتفع عن غيرها من الشّخوص في القصّة، فلا تستند ضمائر تدلّ على التّعظيم فيها إلى أحد سواها»[31]، وبهذا يكون الضّمير الدّال على الله تعالى موجّها للقول على اعتبار أنّ عظمة الخالق تجذب انتباه المخلوق، فضلا عن ارتفاع شأن المناظرة (القول) بارتفاع شأن صاحبها، وهذا أدعى للاقتداء بفحواها، واتّباع منحاها، والتخلّق بأخلاقها، والإصغاء بدقّة إلى تفاصيلها.

بعدها تتحوّل الذّات السّاردة إلى ذوات فاعلة على لسان نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام، فتضطلع الذّوات النّبويّة المكلّفة بالمناظرة بوظيفة المرسل الثّاني والمبلّغ للإرادة الإلهيّة إلى مرسل إليه كافر وطاغيّة، الذي تحدّى واستعلى وتكبّر وادّعى اختصاصه بما لا يمكن للبشر أن يختصّوا به، قال الله تعالى(**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ [أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ])/(إِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ [فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ])** فأبرز قدرة الله تعالى بالأفعال القادر عليها، حيث بلّغ الضّمير (أنت) بعجزه عن الإحياء والإماتة، ثمّ تغيير ناموس الكون بالإتيان بالشّمس من مغربها بدل مشرقها.

سعى المتناظران في مستهلّ المناظرة إلى انتهاج السّلوك التلفظّي ذاته، في إبراز ذاتيْهما محاجَة الطّرف الآخر، حيث أضيفت ياء المتكلّم إلى لفظ الجلالة (ربّ) في قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل (**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ**) وهذا لتأكيد الحضور النبويّ (أنا) لسيّدنا إبراهيم عليه السّلام مقترنا بالحضور الإلهي، ليعمد النّمرود إلى انتهاج السّلوك نفسه ويحذو حذو الذّات النبويّة بإعلانها عن نفسها، حيث قال (**أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ**) فاستعمال (الأنا) من قِبل النّمرود هدفه الرّفع من شأن ذاته وإثبات هيمنتها بالضّمير الأوّل، ولكنّ الذّات الإلهيّة غيّبتها وصغّرت ذاتها الكافرة، وهذا ما يظهر جليّا في قوله تعالى (**فَبُهِتَ الذي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) حيث يعود الضّمير "هو" المستتر والمتعلّق بالفعل "بُهت" إلى النّمرود الذي أخرجه الله تعالى من زمرة المهتدين بهدي الإيمان معلنا عن ذلك بالفعل "لا يهدي" المنفي، ومبلّغا رسالته الحقّ إلى البشريّة جمعاء والتي مفادها أنّ الله لا يُنعم نعمة الإيمان على أيّ إنسان ظلم نفسه وعشيرته وقومه.

ومَثّل تصغير الذّات الرافضة للتّوحيد حاضر في مناظرة موسى عليه السّلام مع فرعون، قال الله تعالى (**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79))(سورة طه)**، ليخرج بذلك فرعون عن دائرة من يستفيد منه

قومه فيصغّر وتصغّر منزلته بعدما وعد قومه بهدايتهم، قال الله تعالى**(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)(سورة غافر، الآية 29)**، فلم يستطع الوفاء بوعده وهو المدّعي للألوهيّة.

وقال أيضا **(وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66))** (سورة الشّعراء)، وفي الآية تصغير للكافرين، فرعون وأتباعه، ففي حين أنجى الله المؤمنين أذلّ الكافرين وصغّرهم حين أغرقهم في اليمّ.

تظهر علاقة المتكلّم في مناظرة إبراهيم عليه السّلام مع النمرود مظهر "امتلاك"، فالله تعالى هو قاصّ المناظرة وهو الذي يدير حججها على لسان سيّدنا إبراهيم عليه السّلام ممّا «يدلّ على امتلاك المتكلّم لقوله»[32] حيث استعمل الله تعالى صيغ الإفراد التي تدلّ على عظمته وعلوّه مقاما وذلك في: "ربّه"، "الله"، فضلا عن الصّفات المخصوصة به والتي استعملها في مقام المواجهة، فكلّ صفة من صفاته المذكورة على لسان المحاج تردّ الأمر والقدرة لله وحده لا شريك له، وذلك عند مواجهة النّمرود بعصيانه لله تعالى (المتكلّم) وإعلان ألوهيّته الباطلة وفرضها على قومه، والأمر نفسه يسري على فرعون فهما عبدان مخلوقان لا يمكن أن تتأتّى لهما الألوهيّة بأيّ شكل من الأشكال، لتكون المناظرة مواجهة بين (الأنا المعظّمة بواسطة رسلها) وبين (الأنت المصغّرة التي تدّعي الألوهيّة).

نخلص إلى القول أنّ الضّمائر هي نقاط الارتكاز الأساس لتكوُّن الذّاتيّة داخل اللّغة حسب "بنفنست"، وتليها «الأسماء المعوّضة (كاسم الإشارة والاسم الموصول) تشاطرها المنزلة ذاتها، إنّها الظّروف وأسماء الإشارة والأحوال والنّعوت وما ينظّم العلاقات المكانيّة والزّمانيّة حول "المسند إليه" بوصفه معيارا: "هذا، هنا، الآن" وتعالقاتها الكثيرة "ذلك، أمس، العام الماضي، غدا...إلخ". وهي تشترك في كونها تُعرف فقط بارتباطها بالوضع الخطابي الذّي تنشأ فيه أيّ تبِعة "لأنا" الذّي يتلفّظ بها»[33] فالمشيرات ّالزّمنيّة والمكانيّة ترتبط بأسماء الإشارة وبالضّمائر ارتباطا وثيقا لا من ناحيّة الذّوات وما يشير إليها وإنّما يكون الارتباط من ناحيّة زمن التلفّظ ومكانه في آنيته وموقعه، وسياقه والقرائن الدّالة عليه، فهي تتحوّل من علامات فارغة إلى علامات ممتلئة دلاليّا أثناء استعمالها على مستوى التداول.

كما نستنتج من خلال تحليلنا لضمائر التّعظيم وضمائر الإفراد وضمائر التّصغير الصّيغة الغالبة في المناظرات القرآنيّة قيد الدراسة وهي:

نحن(الله) ⟵ أنت/أنتما/أنتم (مفرد، مثنّى، جمع)

أنا(الله)⟵ أنت

فالذات الإلهيه باستعمالها ضمير التعظيم (نحن) او ضمير الإفراد (انا) توجه القول إلى مخاطبين متعدّدين، يفصل بينهم زمانين: زمن وقوع الحدث، وزمن قصّ الحدث؛

فزمن وقوع الحدث هو زمن الزّمن الإنجازي للمناظرات، حيث خاطبت الذّات الإلهيّة رسلها المبلّغة للرسالة، فضلا عن تمريرها عبر مخاطبتها لرسلها رسالتها لذوات الكفر التي وصفتها بـ: عدم قدرتهم على إيذاء الرسل في**(فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا)**،وبعدم قدرتهم على غلبة الرسل في**:(أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)** ، وبالظّلم في**: (الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)**، أمّا زمن قصّ الحدث فهو زمن نزول القرآن الكريم على سيّدنا محمّد عليه السّلام، ويمتز هذا الزّمن **بالاستمراريّة** بدل الزّمن الأوّل **المحدّد والمنغلق**، ذلك، لأنّه زمن منفتح على متلقّي القرآن الكريم عبر الأزمنة والعصور وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فما سبق ذكره، نستخلص أنّ الإحالة على المعنى غير مغلقة ولا محدّدة وإنّما قد تنفتح على إحالات تتعدّى العلامات اللّسانيّة من ضمائر وأسماء...إلى مقولات وتصوّرات ذهنيّة تبني المعنى من خلال هذه العلامات التي تمثّل جهازا لسانيّا معرفيّا يتمّ من خلاله التّخاطب الإنسانيّ.

[1]- إميل بنفنست، عن الذّاتيّة في اللّغة، ترجمة صابر الحباشة، ضمن كتاب: لسانيات الخطاب، الأسلوبيّة والتلفّظ والتّداوليّة، دار الحوار للنشر والتّوزيع، الطبعة الثانيّة، سوريا، 2010، ص140.

[2] - Catherine Kerbrat-Orecchioni : L'énonciation: la subjectivité dans la langage, p36 .

[3]- Ibid, p40

[4] - Ibid, p43

[5]- يُنظر: نرجس باديس، الذّاتيّة في النّظام اللّغوي، الدّار التّونسيّة للكتاب، الطبعة الأولى، 2018، ص423.

[6]- يُنظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[7]- القرآن الكريم: اعتمدنا رواية ورش عن نافع

[8]- يُنظر: مفتاح بن عروس، الاّتساق والانسجام في القرآن: رسالة دكتوراه الدّولة، تخصص: لسانيات النصّ، كلية الآداب واللّغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2007–2008،ص220.

[9]- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[10] -J. LYONS, Sémantique Linguistique, paris, Larousse, 1980, p162 .

[11]- نوارة بوعياد، دراسة تداولية للخطاب التعليمي الجامعي–خطاب أساتذة علوم اللغة بقسم الأدب العربي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة تيزي وزو – أنموذجا–، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2001، ص137.

[12]- يُنظر: مفتاح بن عروس، الاّتساق والانسجام في القرآن، ص 272.

[13]- يُنظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[14]- سليمة مدلفاف، دراسة تداوليّة سيميائيّة لتصريف قصّة موسى عليه السّلام في القرآن الكريم، ص262.

[15]- المرجع نفسه، ص262.

[16]- نرجس باديس، الذّاتيّة في النّظام اللّغوي، 423.

[17]- جورج يول، التداوليّة، تر: د قصي العتّابي، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، 1431هـ–2010م، ص28.

[18]- جلال الدّين السّيوطي، الأشباه والنّظائر في النّحو، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، ج2، القاهرة، مصر، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 2003، ص72.

[19]- منى الجابري، المشيرات المقاميّة في القرآن، ص340.

[20]- المرجع نفسه، ص143

[21]- نرجس باديس، المشيرات المقاميّة في اللّغة العربيّة، ص82.

[22]- إميل بنفنست، عن الذّاتيّة في اللّغة، ضمن كتاب: لسانيات الخطاب، الأسلوبيّة والتلفّظ والتّداوليّة لصابر الحباشة، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، الطبعة الأولى، سوريا، 2010، ص137

[23]- نرجس باديس، المشيرات المقاميّة في اللّغة العربيّة، ص71.

[24] - المرجع نفسه، ص72.-

[25]- جول يول، التّداوليّة، ص 29.

[26]- إميل بنفنست، عن الذّاتيّة في اللّغة، ص138.

[27]- المرجع نفسه، ص138.

[28]- م ن، ص 138.

[29]- نوارة بوعياد، دراسة تداولية للخطاب التعليمي الجامعي–خطاب أساتذة علوم اللغة بقسم الأدب العربي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة تيزي وزو – أنموذجا، ص140.

[30]- منى الجابري، المشيرات المقاميّة في القرآن الكريم، ص184.

[31]- المرجع نفسه، ص175.

[32]- منى الجابري، المشيرات المقاميّة في القرآن الكريم، ص 179.

[33]- إميل بنفنست، عن الذّاتيّة في اللّغة، ص138.